# "من هنا نبدأ .. من هنا يبدأ التغيير"

## مقال في جريدة "النداء" عام ١٩٨٨

١

هل دخلنا، حقاً، في زمن الثورة؟ أم أن الزمن الذي نحن فيه ما يزال، بعد، زمن المخاض الذي يهيئ لولادة الثورة؟

لا نطرح السؤال اعتباطاً، فالأحداث الكبيرة التي تتفجر، منذ بضع سنوات، في تواصل يكاد يكون منتظماً، متسقاً، في أكثر من مكان في العالم العربي، إنما نشير إلى تغير نوعي في شكل حركتها، أي حركة هذه الأحداث، وفي مضمونها، وفي نوع قيادتها، وفي مستوى قدرتها على الاستمرار، وفي الآفاق التي تفتحها عن طريق التغيير. وهي، في ذلك، تختلف اختلافاً نوعياً عن الأحداث السابقة. فهي إذن، جديدة، وهي لأنها تحمل كل هذه السمات، تشكل ارتقاء في عملة الكفاح الثوري من أجل التغيير.. فهل هي الثورة بعينها؟

وفي الجواب على السؤال نقول، من أجل الدقة العلمية، بأنها مشروع ثورة، أو أنها ثورة تتكامل عناصرها، غير عملية، معقدة الصراع ترافق كونها، صراع مع كل عناصر الضغط وعوامله التي ترفض الجديد، وتحاول كبحه، وتعمل على إجهاض الثورة، وتجهد من أجل تعطيل حركة التغيير. إنها عملية مخاض تهيئ لولادة قادمة حتماً هي الثورة، ثورة من أجل التحرير والتغيير.

٢

في البدء كانت، المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي فقد ولدت هذه المقاومة بقرار سياسي واع. وكانت بولادتها هذه، في الشروط التاريخية المحددة، إيذاناً ببداية عصر جديد. وكانت من سمات هذا العصر الأساسية أنه كان يشكّل النقيض للعصر الذي أراد الاجتياح الإسرائيلي، الفالت من عقاله، والحصار الطويل لبيروت، ثم الاحتلال لأول عاصمة عربية، أن يفرضه فرضاً وبالقوة، عصراً ثابتاً، مستقراً، في لبنان وفي الوطن العربي، هو عصر الاحتلال والخضوع الجماعي له، والانخراط في مجالات تأثيره، المحلية والإقليمية والدولية كجزء منه ومنها لا يتجزأ.

وعندما كنا نقول، بثقة وحزم، في ذلك الحين، بأن المقاومة الوطنية اللبنانية هي فعل ثوري جديد، وأن هذا الفعل الثوري الجديد له تاريخ، وأنه يملك القدرة على إحداث التغيير، لم نكن نسوق

حكماً اعتباطياً على حدث عابر. لقد كنا نؤمن – وكان ذلك من حق المقاومة علينا ومن واجبنا إزاءها– بأن هذا النوع من المقاومة الذي يستند إلى قرار ثوري، اتخذته والتزمت به ومارسته بثبات قوى ثورية طليعية منسجمة، لا يمكن أن يكون شكلاً من أشكال الثورة، في مرحلة من مراحل تكوّنها وتطورها. ولقد برهنت المقاومة، في الواقع، على أنها امتداد وتواصل لتراث غني وعريق، وأنها تطوير وتأكيد وتعميق لهذا التراث، في شروط تاريخية محددة، لقد استطاعت أن تجذب إلى الانخراط في صفوفها، والإسهام في نشاطها، مقاتلين شجعاناً، هم أبطال هذا العصر، وجماهير لا حصر لها، ليس فقط في مناطق الاحتلال كلها، بل في كل مناطق لبنان بدون استثناء. فتحوّلت، في غمرة الكفاح، إلى قوة مثال. بالإضافة إلى كونها شكَّلت نواة لاستقطاب من نوع جديد، نقيض للاستقطابات السابقة، يعيد تأسيس وحدة اللبنانيين على قاعدة جديدة من الشعور بالوطن، وبالانتماء إليه، وبالتمسك به، وبالدفاع عنه، وجعل هذا العمل التوحيدي نقطة التقاطع بين النضال من أجل تحرير الأرض من الاحتلال، وآثاره، والنضال من أجل التغيير الثوري، والانطلاق من هذا التلازم الموضوعي بين التحرير والتغيير، المتجسد في فعل المقاومة، في عملية ثورية شاملة وعميقة، بعيدة المدى.

ولسنا نحتاج، إلى أدلة وبراهين لتأكيد هذه الحقيقة. وما حصل من صراع داخل المقاومة لم يكن أمراً غريباً بل كان ظاهرة طبيعية. فالقوى التي شاركت في المقاومة إنما تنتمي إلى شعبنا بكل فئاته، وتعبر عن مصالح هذه الفئات كلها. وهذه المصالح ليست واحدة، ولا يمكن أن تكون واحدة، رغم أن ما يجمع بينها هو وحدة المشاعر الوطنية في بلد يعاني الاحتلال، والتمزُّق، وتأثيرات مفاعيل الحرب الأهلية. إن هذا التنوع والتعدد والاختلاف في القوى التي شاركت، ولا تزال، في المقاومة، من شأنه، رغم ضخامة وعمق الأثر الذي أحدثه ويحدثه (أي فرض التراجع وانكفاء القسريين على قوات الاحتلال عن القسم الأكبر من الأراضي المحتلة) أن يؤدي إلى صراع داخلي في قلب المقاومة. وجوهر هذا الصراع الذي نجهد لكي نخفف منه ومن مفاعيله. إنما يدور حول تحديد سمات السلطة داخل الأرض المحررة، وتحديد هويتها السياسية والطبقية، وتحديد الموقع الذي تحتله في مجمل الصراع على الصعيد اللبناني، داخل الحرب الأهلية بالذات، حول طبيعة الأزمة، وحول البرنامج الذي ينبغي اعتماده لحلها، وحول آفاق هذا الحل، وآفاق المستقبل بالنسبة لتطور لبنان وتقدمه. وإذا كان هذا الصراع، داخل المقاومة، ما يزال مستمراً، بأشكال مختلفة، فإن المقاومة، نفسها، تزداد، مع الوقت، بفعل العناصر الثورية الحقيقية الكامنة فيها، والمتجددة على الدوام، قدرة على إثبات سماتها الرئيسية، ومضمونها الرئيسي، كحركة ثورية

لا تؤثر فيها، ولا تعطل مفاعيلها، لا أعمال القمع المتواصلة التي تقوم بها قوات المحتل الصهيوني، ولا الصراع الدائر بين أطرافها، على أساس طبقي وسياسي وفكري. وإذا كانت قد أثبتت، بالملموس، في محصلتها، بما لا يقبل الجدل، أن بإمكان العين أن تقاوم المخرز، فإنها، بالمقابل، قد أسقطت كل الذرائع السابقة التي تنظر لسياسة الاستسلام للعدو الصهيوني، وتنظر لموضوعة الاستحالة في قتال جيش من نوع الجيش الاسرائيلي، وتنظر للتعامل معه، حتى وهو يحتل الأرض ويخضعه لسيطرته. ولقد أكدت، المقاومة، بالنسبة لإسرائيل، أن الغزو لم يعد، كالسابق، نزهة، والاحتلال لم يعد، كالسابق، عملاً سهلاً، وإن إسرائيل رغم كل آلتها العسكرية الضخمة، لا تستطيع أن توقف إندفاعة الشعب المقاوم، ولا أن تلغي قضية وطنية، ولا أن تمنع انتصار هذه القضية التي يتصدى أصحابها للدفاع عنها بكل وسائل الكفاح، وبالتضحية، أياً كان حجمها وثمنها.

لقد استطاعت المقاومة الوطنية، منذ انطلاقتها، أن تفرض وقائع جديدة، وأن تقلب كل المقاييس السابقة، وهي، بذلك، كما أشرنا في البدء، تكتسب، بفعل هذا الدور الذي تمارسه على الأرض، وفي قلب الصراع الرئيسي، داخل لبنان، وحول القضية القومية، فعلاً ثورياً تغييرياً.. وهذه هي، بالتحديد، قيمتها الحقيقية.

٣

إن انتفاضة الأرض المحتلة، هي، اليوم، النموذج الجديد للآخر، في الواقع العربي الراهن، الذي يؤسس للجديد الرائع في الحركة الثورية العربية. فهي ليست انتفاضة عفوية مما كنا نشهد نماذج عنه في السابق، إنها نقلة نوعية في كفاح الشعب العربي الفلسطيني. إنها امتداد، في العمق، لكن تقاليد الكفاح الثوري لهذا الشعب، وهي القفزة النوعية التي أدى لها هذا التراكم العظيم في سنوات الكفاح الطويلة الصعبة المعقدة، المليئة بالانتصارات والهزائم. وإذا كنا نؤكد بأنها ليست عفوية، فإننا نؤكد، على أساس ذلك، بأن القيادة فيها مزيج من عدة عناصر، أولها هذا الدور الحقيقي الذي تلعبه في الانتفاضة مشاعر الغضب العميق العارم في صفوف جماهير الشعب الفلسطيني، بمستوى من الوعي يزداد ارتقاءً، وثانيها دور يزداد تقدماً لدى العامل الثوري في قلب القوى الوطنية الفلسطينية المتعددة الانتماءات، وثالثها تعاظم الفعل الثوري في كل أشكال المقاومة للاحتلال، لا سيما في لبنان، وتحديداً في المقاومة الوطنية اللبنانية كنهج سياسي، وكفاحي، وكفكر، وكقيادة ثورية. وتصبح الانتفاضة، التي تحتضنها جماهير الوطن العربي، يمثل ما

احتضنت به المقاومة الفلسطينية المسلحة عندما انطلقت في أواخر الستينات. أحد عناصر الأمل الجديد في الرد على الهزائم الجديدة المتكررة، بأشكال مختلفة، في مواجهة العدو الصهيوني الامبريالي الرجعي، وتسهم، من موقعها في رحلة الحركة الثورية الجديدة بقوة جديدة فاعلة مؤثرة، ولذلك فإن الإسهام فيها، بكل أشكاله، من داخلها، ومن حولها، إنما يشكل عامل تجذير لها، وعامل تثبيت وتعميق لقدراتها على قلب كل المقاييس السابقة في التعامل مع القضية الفلسطينية، كقضية شعب يريد التحرير من نير الظلم القومي والاجتماعي، وينتقل، من المكاسب التي يحققها، وفي مقدمتها دولته الوطنية، وسلطته الوطنية الثورية فيها، إلى الإسهام في عملية التغيير الثوري في الوطن العربي.

٤

هكذا يصبح الفعل الذي بدأ في بناء هيكل الزمن الثوري، فعلاً متجذراً ومتجدداً، على الدوام، ويصبح الزمن الثوري، في ظل هذا الفعل المتجدد، المستمر، المتواصل، زمناً حقيقياً للثورة، من أجل التحرير القومي والاجتماعي، الزمن الذي من أجل قيامه نبذل، اليوم، وبذلنا بالأمس، وسنظل نبذل، في المستقبل، كقوى ثورية، كل ما لدينا من طاقة في عملية تجديد الحركة الثورية العربية.. وقيامها لا يتم إلا بالكفاح، والكفاح هذا يتعاظم ويرتقي، وعياً لدى الجماهير، وقيادة بمستوى هذا الوعي، وبمستوى المهمة الرائعة التي تنتظر.

وليست المقاومة الوطنية اللبنانية وانتفاضة الأرض المحتلة في فلسطين، إلا نموذجين.. أما النماذج الأخرى فهي تتكون، وطلائعها تبرز في أكثر من مكان...